عصــور - تصنيف ج- المجلد 23 / العدد01 - جوان 2024
EISSN 6278-2600 ISSN 1112- 4237
http://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/167

معرف الكائن الرقمي للمقال:(DOI)1054239/2319-023-001-012

النماذج المعرفية في مناهج العلوم الإنسانية والاجتماعية
-دراسة علائقية نقدية-

Cognitive models (Paradigms) in humanity and social sciences methods- a critical relational investigation-

د. حيدر العايب *
جامعة محمد لمين دباغين- سطيف 2/ الجزائر
h.laib@univ-setif2.dz

تاريخ الإرسال:2024/02/05 **تاريخ المراجعة:2024/02/20** **تاريخ القبول:2024/04/26**

الملخص:

تأتي هذه الورقة الموسومة بـ "النماذج المعرفية في مناهج العلوم الإنسانية" لتعالج اشكالية حضور النماذج المعرفية، ليس في النظريات العلمية للعلوم الإنسانية حصرا، بل في المنهج كذلك. إذ نحن نسلم بإمكانية نفوذ النماذج المعرفية في مضامين العلوم الإنسانية، غير أننا لا نسلم بنفوذها في المناهج . إذ الاعتقاد السائد في هذا الباب أنّ المنهج حكمه حكم الوسائل لا الغايات. غير أن نفوذ تلك النماذج لا يعني ضرورة التحيز الأيديولوجي لمناهجها، فقد يكون تحيزا ابستمولوجيا، يحدد لنا المناهج الكيفية بحسب المدارس والنظريات والأدوات المتاحة، وفي الغالب يسمح ذلك بالتعدد المنهجي، وحتى التباين، في التفسيرات والنتائج. على هذا الأساس يجري معالجة المسألة انطلاقا من مستويين؛ مستوى ضبط التصورات تأخذ بتعريف كل من العلوم الإنسانية والمنهج والنماذج المعرفية. ومستوى تبرير تصديق يعالج تداخل النماذج المعرفية في العلوم الإنسانية، ثم الدلالات الابستمولوجية للوعي بسلطة النماذج المعرفية في هذه العلوم.

* د. حيدر العايب، جامعة سطيف2/ الجزائر

الكلمات المفتاحية:
العلوم الإنسانية؛ العلوم الاجتماعية؛ المناهج؛ النماذج المعرفية؛ الابستمولوجيا؛ الموضوعية؛ الذاتية؛ الأيديولوجيا.

Abstract :

This paper, entitled "Cognitive Models (Paradigms) in Humanity methods" propounds the issue of affinity between cognitive models and humanity methods. Contrary to the existing doctrine that cognitive models impact the researcher and the contents of those sciences exclusively, this paper depicts their outcome on methodology as well, and that curricula, in turn, entail a degree of subjectivity as it can not be utterly absolutely objective. Taking into account that this subjectivity is agglutinated to the epistemological sense more than its ideological connotations. On this basis, the issue is tackled through two major levels: The level of control of perception that takes into consideration the definition of each of the human sciences, method, and cognitive models. Besides, the level of endorsements (contents) that grapples with the overlap of cognitive models in human sciences curricula and the epistemological propensity between them.

Keywords :
human sciences; social sciences; methodology; cognitive models (Paradigms); Epistemology; objectivity; subjectivity; ideology.

- مقدمة:

صار إنسان هذا الزمان أكثر شيء جدلا، فهو الذي تحرر من تبعية الطبيعة ليصبح سيدا لها بعد دخوله وضع التاريخ والثقافة، وهو الذي تفرغ من دراسة الطبيعة إلى دراسة ذاته، فبعدما كان ذاتا باحثة استحال هو عينه إلى موضوع مبحوث، فازدادت مطالب مراجعة الإنسان لذاته والتأسيس لعلم يُعنى بدراسة الإنسان في فكره وسلوكه وحوادثه وعوائده مقابل للعلم الطبيعي الذي يعنى بالوقائع والتحولات الطبيعية. هي مقابلة بقدر ما تُطرح من باب الندية المعرفية، فإنّها بذات الحجم طرحت في بعض من جوانبها مطلب

المشـاكلة أو المماثلـة علـى مسـتوى المـنهج. فمـا حققتـه العلـوم الطبيعيـة مـن انجازات علمية سبب فـي تبلـور خطـاب علمـي عـن الإنسـان يحـاول تحقيـق المنجز العلمي ذاته. لـولا انّ الظـاهرة الإنسـانية بنوعيتهـا الروحيـة غالبـا مـا شكلت موقفا تشكيكيا من إمكانية التأسيس لعلوم إنسانية بالمعايير العلمية ذاتها التي قامت عليها العلوم الطبيعية، وهو الـذي سـمح بـالتفكير فـي إمكانيـة هـذا التأسيس العلمي، وإن كان هذه المـرة عبـر الاسـتقلالية المنهجيـة عـن العلـوم الطبيعية، أي البحث عن منهج ابستمولوجي بـديل يجمـع بـين الـروح العلميـة والخصوصية الإنسانية.

غير أنّ الأمـر فـي علاقتـه بسـؤال النمـاذج، والأيـديولوجيات، ورؤى العالم، سوف يضع المنهج في حدّ ذاتـه موضـع النقد الابسـتمولوجي، ولـيس فقط المضمون المعرفي للعلوم الإنسانية، ولا الظاهرة الإنسـانية ذاتهـا. فغالبـا ما نكتب أو نقرأ عـن لا موضـوعية المضـمون بحكـم أيديولوجيـة الـدارس أو ذاتية الظاهرة/ الموضوع، فيتم السعي للبحث عن منهج مناسب يضمن صدق المعنى (الموضوعية)، دون السؤال عن مدى مصداقية المنهج ذاته، ولا شـك أنّ هذا السّؤال يكاد يكون لا مفكرا فيه نظرا للاعتقاد السائد عن حياد المنهج، أي النظر إليه كأداة أو وسيلة وطريقة للظّفر بالمعنى.

من هكذا موقف استشكالي تأتي هذه الورقة لتعالج الاشكالية بصورة نقدية العلاقة بين النماذج المعرفية والمناهج الكيفية في العلوم الإنسانية.

-إشكالية الدراسة:

إلـى أيّ مـدى تـؤثر النّمـاذج المعرفيـة علـى منـاهج وأدوات البحـث والدراسة في حقل العلوم الإنسانية والاجتماعية؟ ثم كيف يكـون تأثيرهـا ذاك؟ هل هـو شـبيه بتـأثير الايـديولوجيا وبذاتيـة الباحـث؟ أم أنّـه تـأثير لـه مكاسـبه الموضوعية؟ ثم كيف تتدخل النماذج المعرفية وحتى القيمية في تحديد طبيعـة المـنهج وأدواتـه؟ كيـف هـو أثرهـا علـى عمـل المـنهج وأدواتـه فـي التحييـز والانتقاء وإصدار الأحكام؟

- منهج الدّراسة:

تقوم الدراسة بمنهجية تحليلية مقارنة؛ حيث يفيـد التحليـل علـى تفكيـك المضامين المعرفية والقيمية وحتـى الـرؤى الأنطولوجيـة الكامنـة فـي منـاهج العلـوم الإنسـانية والاجتماعيـة، وبالتـالي كشـف تحيـزات المـنهج ومضـامين العلوم الإنسانية على حدٍّ سواء. أمّا المقارنة فتفرضها طبيعة الإشكالية المثارة حول المنهج في العلوم الإنسانية والاجتماعيـة التـي تبلـورت فـي ظـل علاقـة

الأخيرة بمناهج العلوم الطبيعية، إلاّ أنّ المقارنة ستكون في الغالب ضمنية لا مباشرة. وأهميتها تكمن أساسا في التأكيد على خصوصية الظاهرة الإنسانية عن الطبيعية، وبالتالي خصوصية منهج كل دراسة. هذا من جانب، ومن جانب ثان الكشف عن مقدار التفاوت من عدمه في تمثل مناهج العلوم الطبيعية ومناهج العلوم الإنسانية للنماذج المعرفية.

1- العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية المصطلح والمفهوم:

اختلاف الظاهرة الإنسانية عن الظاهرة الطبيعية لزمه اختلاف في المفاهيم والمناهج والأدوات. لذلك يحاول هذا المبحث الوقوف عند حدود كل منهما على مستوى المفاهيم كي ينجلي للقارئ أثر هذا الاختلاف على ما دونه من مستويات من مفاهيم ومناهج الدراسة ومجالات الاهتمام.

1-1- بين خصوصيات الظاهرة الإنسانية والظاهرة الطبيعية:

لعل الوقوف على خصائص الظاهرة الإنسانية مقدم على تعريفها، وذلك بحكم كلية الإنسان وتعقد ملكاته وتداخل وظائفه. أما التعريف فيكون في الغالب في صورة مقابلة للظاهرة الإنسانية بالظاهرة الطبيعية -وهو الأكثر تداولا- حيث تترجم العلوم الإنسانية عادة بـ "علوم الفكر" أو "علوم الروح" أو "العلوم العقلية" (فالبيولوجيا مثلا علم إنساني لكنها تدرج ضمن العلوم الطبيعية). لذلك كانت العلوم الإنسانية عند "ريكمان Rickman" هي: "العلوم التي تعنى بالإنسان الحامل في ذاته القدرة على التعقل والتفكر" أما العلوم الطبيعية: "تبحث في قوام الأجسام التي تنطوي عليها الطبيعية ولا تمتلك في ذاتها قدرات الروح الإنسانية". العلوم الإنسانية موضوعها كل ما يصدر عن الإنسان من أنواع السلوك سواء كفرد أو كعنصر ضمن مجموعة، والفرق بينها وبين علم الأحياء "البيولوجيا": هي المادة وقد أضيفت لها القدرة على القيام بوظائف الحياة (ب. ه. ريكمان، 1979: 105). وقد حدّد الفيلسوف وعالم الاجتماع الألماني "ماكس فيبر" أربعة أنماط للفعل الإنساني هي على التوالي: الفعل العقلي الذي توجهه غايات محددة ووسائل واضحة، والفعل العقلي الذي توجهه قيمة مطلقة، والفعل العاطفي، ثم الفعل التقليدي (المرجع نفسه: 49، 50).

الملاحظ أنّ تلك القسمة بين الظاهرة الإنسانية والظاهرة الطبيعية تعود إلى القسمة الثنائية التقليدية بين الطبيعة والشعور الإنساني، وهي ذات مستويين ابستمولوجي وآخر أنطولوجي، الأول يشير إلى التفسير الذي

يستهدف إدراك طبيعة العلاقات السببية التي تحكم الظاهرة الطبيعية، في مقابل الفهم الذي يستهدف إدراك الحياة النفسية كعلامات قاصدة للنشاط العيني والتاريخي للإنسان. وعليه فهذا التعارض مرده إلى التعارض الحاصل بين طريق الاستدلال العقلي وطريق الحدس التعاطفي. أمّا المستوى الثاني (الأنطولوجي) فهو الفارق في طبيعة المجالين وجوديا، وإليه يعود التعارض الحاصل في المستوى السابق (نبيهة قارة، 1998: 62، 63).

مثل هذه الرؤية المزدوجة عن طبيعة المجالين ستتجلى في توجه مزدوج للخطط المنهجية؛ الفهم عندما يتعلق الأمر بالنشاط الإنساني لكشف العلل والمقاصد ذات الطابع القيمي. في مقابل التفسير حينما يتعلق الأمر بالظاهرة الطبيعية لكشف القوانين والأسباب المجردة.

الملاحظ هو أنّ الانفصال بين العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية يغذّيه أمران اثنان؛ الاختلاف في طبيعة الظاهرة، نتج عنه الأمر الثاني ضرورة هو الاختلاف في منهج الدراسة، حيث المنهج التفسيري الكمي هو الأنسب للظاهرة الطبيعية بينما يكون منهج الفهم الكيفي هو الأنسب للظاهرة الإنسانية.

2-1- العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية وحدود الاتصال:

لما كان المنهج هو الحدّ الفاصل بين العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية الموصوفة بالتجريبية نسبة لمنهجها، فإنّ التمايز بين العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية يكاد يكون منطقيا أكثر منه منهجي، فالظاهرة الاجتماعية إنسانية بالضرورة، والتمايز بينهما يكون بحسب "المجال" لا بحسب المنهج، ولا بحسب طبيعة الموضوع، كما هو الحال مع العلوم الطبيعية. وعليه يمكن الحكم على أنّ "العلوم الاجتماعية تتناول دراسة الإنسان في ذاته وفي علاقته بغيره من الناس من النواحي الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. وهي دراسة تاريخية مقارنة تحليلية تفسيرية... أمّا الإنسانيات فهي دراسة للإنسان ومدى تقديره لذاته ومدى علاقته بالآخرين من النواحي الإبداعية والروحية والفكرية بما في ذلك الدراسات الإيديولوجية والجمالية" (أحمد بدر، 2001: 15، 16).

الملاحظ ها هنا أنّ "طبيعة الفعل الإنساني" هو الموضوع المشترك بين كل من الإنسانيات والعلوم الاجتماعية -على غرار مجاله فردي أو اجتماعي نظري أم عملي- كما يبقى المنهج بدوره أمرا مشتركا رغم مساعي العلوم الاجتماعية للاقتراب أكثر من الاستفادة من مناهج العلوم الطبيعية ولغتها

الكمية مقارنة بالإنسانيات، إلاّ أنّ التقدم أكثر في هذه الورقة سيبرز كيف أنّ "الفهم" عصب المنهج "الكيفي" هو ما يحفظ للعلوم الاجتماعية والإنسانية وحدتها.

فالفهم كما يعرفه "ريكمان" هو "تلك العملية المعرفية التي نتعرف من خلالها على أفكار ومشاعر ومطامح الكائنات الإنسانية الأخرى، فالفهم استبصار في العالم الإنساني" (ريكمان: 145). وهو في نظره يعدُّ أمرا فطريا في الإنسان منذ نعومة أظافره، فنحن نحاول أن نفهم ما تعنيه هذه الإشارة، وما تعنيه القصيدة التي نقرأها في صغرنا، وما تعنيه هذه الصورة... إننا نستخدمه في شتى مجالاتنا، أبسطها وأعقدها، هذا الحضور البسيط والدائم للفهم هو ما يجعلنا نصنفه على أنّه أقل أهمية وأقل قيمة.

لذلك سعى "ريكمان" لتسييج الفهم وفق أطر إبستمولوجية تجعله أكثر أهمية منهجيا، مؤكدا أنّ أهميته المنهجية تتأتى من إمكانيته النفاذ للظاهرة الإنسانية، فالعلم الإنساني مليء بالمعاني وهو مصحوب بالوعي ومحكوم بالأهداف؛ فوراء الشخصية التاريخية (علم التاريخ) ورقصات القبيلة (الأنثروبولوجيا) وحماسة المناضل في الحزب والنقابة (علم الاجتماع السياسي والسياسة) وراء كل ذلك تكمن أفكار وقيم ومعتقدات لها غايات ومقاصد (ريكمان: 162).

أمّا عن شروطه الابستمولوجية فيحددها في: الألفة بالطبيعة الابستمولوجية؛ تفرضها وحدة الطبيعة الإنسانية، أي الألفة بين الذات الدارسة والموضوع المدروس، كيما يؤدي إلى حصول الفهم بينهما، وهو ما تراه العلوم الطبيعية عائقا عن الموضوعية. معرفة الخلفية التاريخية؛ أي معرفة الرؤية والنموذج المعرفي الكامن وراء الإنسان محل الدراسة وذلك من خلال فهمنا لبيت وجوده أي اللغة، ونصوصه الأدبية والفلسفية ومناهجه العلمية. ثم الوعي بالسياق الذي تحدث فيه الظاهرة (ريكمان: 164 -168).

البحث في الشروط الابستمولوجية للفهم هو ما سيكفل للعلوم الإنسانية الاستقلال المنهجي عن العلوم التجريبية. نعم قد يكون للعلوم الإنسانية منهج واحد، تماما حال العلوم الطبيعية، إلاّ أنه منهج قائم على خصائص الظاهرة الإنسانية، هو "المنهج الكيفي" -في مقابل المنهج الكمي للعلوم التجريبية-، كما أنّه داخل إطار الوحدة المنهجية هذه نلتمس أدوات وطرق وممارسات بحثية متنوعة؛ كالأسلوب التاريخي الإستردادي في التاريخ، وأسلوب المسح الاجتماعي، والأسلوب الإحصائي في علم الاجتماع، أيضا أسلوب التحليل

النفسي، وأسلوب تحليل المضمون وأسلوب دراسة الحالة، وربما نجد عدّة أساليب في العلم الواحد. لكنها تبقى أدواتا وأساليبا لا منهجا. ومبرر ذلك أن كل تلك الأساليب تنشد "الفهم" الذي يعد عصب المنهج الكيفي (ريكمان: 318- 320).

2- المنهج والميتودولوجيا:

يأخذ البحث في مناهج العلوم الإنسانية والاجتماعية ضرورته الابستمولوجية، نظرا للمعطيات التالية؛ تشابك وتعقد الوقائع الاجتماعية والإنسانية وتنوعها، ولا يلزم حينذاك سوى "المنهجية" كما تساعد على ترتيب الوقائع وتحديد المقدمات للباحث لتشخيص الظاهرة. أيضا وجود تكافؤ بين المنهج والظاهرة، وهذه الأخيرة هي من تفرض قواعد المنهج بغية نقل الوقائع دون تجزئة، أو بتر، ولا يفرض عليها فرضا، وإنّما يصاغ المنهج وفق خصوصيات الظاهرة. إلاّ أنّ ذلك لا ينفي أن يكون المنهج وسيلة غير محايدة، بل يأخذ ما يناسبه من وقائع وما يكون على مقاسه ويدخل في تكوينه الداخلي. هذا المبحث هو كشف الطريقة التي تؤثر بها النماذج المعرفية على مناهج العلوم بدءا بالوقوف على ما نقصده بفلسفة المنهج، مرورا إلى علاقة النظريات بالمنهج.

2-1- فلسفة المنهج:

يؤكد علماء المناهج أنّ للمنهجية فلسفة وإجراءات، الفلسفة تكمن في النموذج المعرفي، والإجراءات في المنهج والأدوات (محمد ناصر عارف وآخرون، 1996: 09). وبما أنّ الميتودولوجيا فلسفة وإجراءات، فذلك يعكس تأويلين جدليين؛ "أنّ المناهج وأدواتها وإجراءاتها -ولا شك- تستبطن فلسفتها المنهجية التي تأصّلت من خلالها، ومن ثم يصعب وصفها بالمحايدة". وبما "أنّ بناء فلسفة المنهجية خطوة أوّلية قبل بناء أدواتها ومناهجها، فإنّ محاولة البدأ من الفرع هي محاولة لتطويع الأدوات والمناهج تلك لتتناسب بطريقة وأخرى مع الواقع" (نفسه: 09، 10).

يؤكد "إدغار موران Edgard Morin" على وجوب التمييز بين المنهجية (الميتودولوجيا) والمنهج: "هل علينا أن نذكِّر أنّ كلمة "منهج" لا تعني بتاتا الميتودولوجيا؟ فالميتودولوجيات دلائل فلسفية تبرمج البحوث" (موران، 2013: 38). وهذا يشير إلى أنّ لكل منهج كما تقول "مادلين غراويتز Madeleine Grawitz" إيحاء فلسفي، لذلك فمن الانطباعات التي تحاك عن المنهج أنّ "هذا المصطلح مستعمل لوصف إجراءات تأخذ موقعها على مستويات

مختلفة، فيما يخص إيحاءها الفلسفي بدرجات متفاوتة، ودرجة تجريدها، وهدفها التفسيري بدرجات متباينة، وعملها على مراحل بحث ملموسة بدرجات مختلفة واللحظة التي تأخذ موقفها فيها" (غراويتز، 1993: 09).

فالمنهج إن كان من الناحية الفلسفية هو "مجموع العمليات الفكرية التي يسعى من خلالها اختصاص ما إلى بلوغ الحقائق التي يتابعها ويثبتها ويتحقق منها" (المرجع نفسه: 09)، فهو "كموقف ملموس تجاه الموضوع" يكون الموقف الفلسفي فيه "مضمرا قليلا أو كثيرا" (المرجع نفسه: 10). ناهيك عن وظيفته التفسيرية حيث نجده "يرتبط بمقدار أو بآخر بموقف فلسفي، ويستطيع أن يؤثر بهذه المرحلة من البحث أو تلك" (المرجع نفسه: 09). ما يؤكد وجود تفاوت في مقدار الالتزام والدّقة والكمال والانتظام. وليس مردّ ذلك إلاّ للبعد الفلسفي المضمر، إذ للمنهج دور في الانتقاء والترتيب والاختزال.

ولنا في ذلك عمل المؤرخ ومنهجه في رواية الحدث أو نقله أحسن مثال، حيث سنجد أنّ "التاريخ مثله في ذلك مثل الرواية الأدبية يقوم بالانتقاء والتبسيط والتنظيم والإلمام بقرن كامل في صفحة واحدة... وهذا الحد هو أنّه ما من حالة واحدة يسميها المؤرخون حدثا يمكن الإحاطة بها، بأسرها وبالكامل نحو مباشر، ولكن قصارى الممكن هو أن يجري إدراكها على وجه غير مكتمل وبنظرات جانبية (أحادية الجانب) من خلال الوثائق أو شهود العيان، أي ما تخلفه وراءها من علامات" (بول فين، 1992: 26).

2-2- المنهج والنظرية:

المعطيات السابقة تفسر حقيقة أخرى لا تقل أهميّة عن سابقاتها هو الالتباس بين مفهوم المنهج ومفهوم النظرية في العلوم الإنسانية، فالتحليل النّفسي -مثلا- يفهم كمنهج وكنظرية أو حتى فلسفة، وكذلك الأمر مع الظاهراتية، والحوليات في الدراسات التاريخية، والوضعية في العلوم الاجتماعية فهي بقدر ما تحاول أن تقدم نفسها كمنهج له القدرة على التوصيف والتفسير مع ادّعاء مطلق الموضوعية، نجد من يرى في تلك المناهج على أنّها فلسفات وحتى مذاهب ورؤى.

وقد عبّر "بول ريكور Paul Ricoeur" عن هذه الحقيقة بقوله: "فنحن لم يعد بمقدورنا أن نكتفي، كما كان الحال منذ عشرين سنة، بتمييز المنهج والنّظرية. فنحن نعرف الآن أنّ "النظرية" في العلوم الإنسانية ليست إضافة حادثة: إنّها مكوّنة من الموضوع نفسه... أي النّظرية من حيث هي تجعل

تكوُّن الموضوع نفسه ممكنا. وهنا تكـون النظريـة منهجـا" (ريكـور، 2005: 138).

هنالك مستوى آخر من التداخل يتجاوز إمكانية تساوي النظريـة بـالمنهج وهو مستوى على ما يبدو أكثر خطـورة يتمثـل فـي التواشـج بـين "النظريـة" و"النمـوذج" مـع "أسـبقية النظريـة علــى المـنهج" وهـو الـذي يعـرف بـــ "استراتيجية النظرية ثم البحث Theory-then- research Strategy" أي تـأتي النظرية أولا وتتبع بالبحث لاحقا. حيث تطورت هذه النّظرية على يـد "كـارل بوبر K,Popper" كونـه رأى أنّ المعرفـة العلميـة تتقدم بشـكل أسـرع حينمـا يطور العلماء الأفكـار (الحـدوس) ويحولـون دحضـها عـن طريـق التجريـب (شافا فرانكفورت وآخرون، 2004: 59). هذه العملية العقلية القبلية هي التـي تجعل التـداخل بـين النظريـة والنمـوذج أكثـر إمكانـا لدرجـة يصـعب التمييـز بينهما، ذلك أنّه "يمكن الوصول إلى النظريات عن طريـق الحـدس فقـط بنـاء على علاقة فكرية مع الأشياء التي تقع ضمن الاهتمام والخبرة" (نفسه: 59).

هنالـك حقيقـة منهجيـة أخـرى، تـرتبط بالتمـايز بـين طـريقين فـي بنـاء المعرفـة، نقصـد المراوحـة بـين "التصـور" و"الصـورة" أو بـين "البنـاء" و"البنية"، "ذلك أنّ الصورة والبنية يدلان على انعكاس مباشر للأعيـان علـى الأذهان، وبالتالي يتعلق الأمر بالمطابقة، في حين أنّ البنـاء والتصـور يـدلان على العمليات العقلية الناجمـة عـن تفاعـل العقـل بالطبيعـة والعـالم" (يوسـف تيبس، 2014: 31) . وبمـا أنّ العقـل لـيس مجـرد متلقـي سـلبي للانطباعـات الحسية، بل هو يستقبلها في جو مليء بالخلفيات والمفـاهيم الثقافيـة القبليـة، أو يتوجه صوبها وفق قناعات معرفية وثقافيـة وفـق مـا تمليـه رؤى العـالم، فـإنّ الوضع يكون أكثر حدَّة في ميادين العلـوم الإنسـانية المختلفـة. فـالمؤرخ يكـاد يكون أقرب الناس من هذه الوضعية، فهو لا ينقـل بنـاءات أو صـورا بمعـزل عن إعادة تأويلها وبنائها بقوة إدراكه الذاتي للظاهرة.

3- ابستمولوجيا النماذج المعرفية:

ارتبط مصطلح النّمـوذج المعرفـي بالابسـتمولوجي الأمريكـي المعاصـر "توماس كون Thomas Kuhn" في كتابه الشهير بـ "بنية الثـورات العلميـة". أما عن كيفية تبلور هذا المصـطلح علـى سـاحة النقـاش الابسـتمولوجي، فـإنّ للأمر علاقة بالدّراسات الإنسانية في علاقتها بالعلوم الطبيعيـة والتكنولوجيـة. حيـث ارتـبط الأمـر بدايـة باحتكـاك "تومـاس كـون" بالمتخصصـين بميـدان الدّراسات الاجتماعية والنفسية، لذلك كان من المفترض -كما ذكـر- أن تتضـح

فكرته عن النماذج على شاكلة مجلد يعكس التكامل المعرفي والعلمي بين كلا الميدانين الإنسانيات والطبيعيات "موسوعة العلم الموحد".

1-1- النموذج المعرفي المصطلح والفكرة:

لأنّ فكرة النماذج مستوحاة أساسا من الاعتقاد بوجود خطوط رفيعة وخلفيات تجمع العلوم على بعضها، بدل تفكيكها بداعي التخصص، وهو ما يفسّر إشادة متخصص في الفيزياء النظرية، اقصد توماس كون، بأعمال الجشطالتيين و"جون بياجي" والدّراسات اللغوية والثقافية وعلاقتها برؤى العالم. وقد جاء في مقدمة كتابه ما نصّه : "بحكم أنّي أعيش في متحد مؤلف من في غالبيته من اختصاصيين في العلوم الاجتماعية، المختلفين جدا عن الاختصاصيين في علوم الطبيعة الذين تشكّلت بينهم، وجدت نفسي أمام مشاكل غير منتظرة. بشكل خاص، وجدت نفسي مصدوما بعدد وضخامة التباعدات المعترف بها، التي تواجه اختصاصيّ العلوم الاجتماعية حول موضوع طبيعة المناهج والمشاكل العلمية الشرعية، مثله مثل تجربتي الخاصة، قادني التاريخ إلى الشّك بأهلية اختصاصيّ علوم الطبيعة للإتيان بأجوبة لهذه الأسئلة أكثر دقة وأكثر نهائية من زملائهم في العلوم الاجتماعية... إنّه في محاولة اكتشاف أصل هذا الاختلاف (أي بين ميداني العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية) انقدت لأعترف بالدور الملعوب في البحث العلمي للذي كنت قد سميته منذ ذلك الحين "النماذج" أو "الأنماط Paradigmes"" (توماس كون: 10).

قد يعكس هذا النّص بعض الحقائق الابستمولوجية كأهمية التكامل العلمي والمعرفي، أو إمكانية أن تفتح الدراسات الإنسانية والاجتماعية والثقافية دروبا معرفية للعلوم الطبيعية بقدر ما تمنحه هذا الأخيرة على الصعيد المنهجي للأولى، إلاّ أنّ الحقيقة الأكثر عملية في هذا السياق أنّ فكرة النماذج المعرفية التي تبلورت في ظل الدراسات الابستمولوجية للعلوم التجريبية تبيِّن أنّ فلسفة المعرفة بمجالاتها ونظرياتها في ميادين الدراسات النفسية والثقافية (رؤى العالم) وعلم اجتماع المعرفة كلها تشكل "جذورا أصلية" للعلوم الطبيعية.

أمّا عن دلالة النموذج المعرفي/ الجذور الأصلية فالأمر يبدو أكثر تعقيدا كونه منغمس بشكل عميق في اللاوعي الفردي والجمعي، ولأنّه يحيل إلى جذور عديدة متشابكة (لسانية، ومنطقية، وبكل أعمق، عصبية ونفسية واجتماعية وثقافية) (إدغار موران، 2013: 444).

وإن كان هذا المفهوم من السهل الممتنع ذلك أنّ استخداماته ودلائله تراوحت عند "كون" بين عدّة مفاهيم، إلاّ أنّه يمكن الظّفر بمدلولين اثنين أكثر شمولا ووضوحا عن البارادیغم؛ ففي الطبعة الأولى من "بنية الثورات العلمية" قصد به: "الاكتشافات العلمية المعترف بها كونيا، والتي تقدم في حقبة معينة مشاكل نموذجية وحلولا إلى الباحثين"، أمّا في الطبعة الثانية فقد اتخذ البارادیغم معنى اجتماعيا فأصبح "مجموع المعتقدات والقيم السائدة والتقنيات المتداولة بين أعضاء جماعة معينة"(نفسه: 443). ومنذ ذلك الحين والكتابات المعرفية والثقافية والعلمية تستثمر في هذا المصطلح ليس كمفهوم فقط وإنّما كأداة إجرائية يتم بموجبها تفكيك الخطابات والتصورات والبُنى المعرفية. وإن كان هذا المصطلح يعرف تداخلا بنسب متفاوتة مع بعض المصطلحات كرؤى العالم والأيديولوجيا والابستيمي والسياق.

إنّ حاجة هذا المقال لمفهوم البارادیغم ليس لأجل التأكيد على لا تراكمية المعرفة العلمية وقطائعها، وإن كانت هذه هي فكرة "كون" الرئيسية، أي التأكيد على أنّ تقدم العلوم لا يكون وفق منحنى خطي يضاف فيه الجديد على القديم أو يصحح فيه اللاحق السابق، بل الأمر يتم على شاكلة ثورات علمية. ما يعنى، أنّ النظريات والحقائق العلمية حول الواقعة الواحدة وعلى اختلافها قد تتجاور وتتساوق في فترة زمنية واحدة على شاكلة أنماط أو نماذج يتبنى فيه كل متّحد أو جماعة علمية نموذجها، وهكذا لاحظ "كون" -مثلا- أنّه منذ القدم وإلى غاية القرن السابع عشر لم تكن هنالك نظرية واحدة مقبولة عموما عن طبيعة الضوء، بل كانت فيه عدّة نظريات متبناة من طرف جماعات ومدارس علمية تريد كل واحدة منها إثبات صحّة فرضيتها، ليبقى التساؤل: ما علّة كل هذا الاختلاف والتعدد حول ظاهرة فيزيائية واحدة؟ الجواب: "لقد استمدت كل مدرسة سلطتها من علاقاتها مع ميتافيزيقا خاصة بها، وألّحت كل منها، في ملاحظاتها الجذرية (رؤيتها للعالم) على مجموعة خاصة بالظواهر البصرية التي تستطيع نظريتها أن تشرحها بنجاح أكثر" (توماس كون: 35). في هذا المجال بالضبط كانت موجة التنافس والانتقادات، أو الإضافات الممكنة التي قد يلحقها عنصر جديد ضمن متحد علمي محدد، كان كل ذلك يتم وفق هامش محدود من الحريات، تطال فقط مستوى النتائج والأدوات وليس المنطلقات أو الأسس أو الرؤى والجذور الأصلية خوفا من إعادة بناء كل شيء من الصفر.

ترتبط الحاجة إلى توظيف فكرة النموذج في هذه الدراسة للتأكيد على وجود خلفيات فكرية وقناعات نفسية كامنة وراء المناهج والنظريات والمفاهيم العلمية، هذه الخلفية إمّا أنّها تشكل "الرؤية للعالم Worldview" وإمّا أنّ هذه الأخيرة هي من يغذيها، لأنّها قد تكون أشمل منها. ورؤى العالم تعد ذات أساس أنطولوجي متين وليس فقط معرفي. أما عن مفهوم "رؤى العالم" يكتب الفيلسوف الأمريكي "وولتر ستيس Walter Stace": "تميل أفعال الناس وأفكارهم إلى أن يحكمها -أو يؤثر فيها على الأقل- مجموعة من الأفكار العامة عن طبيعة العالم ومكان الإنسان فيه. ويمكن أن نطلق على الأفكار العامة من هذا القبيل اسم "صورة العالم" أو وجهة نظر الإنسان عن العالم. وتكون صورة العالم هذه عند العلماء والباحثين والفلاسفة متناسقة إلى حد ما، وإن كانت تعمل عند الغالبية العظمى من الناس بطريقة خفية بوصفها الخلفية المعتمة لأذهانهم، لأنّهم لا يلاحظونها بأنفسهم بل يسلمون بها تسليما. ويكون، في العادة، لحقبة معينة في ثقافة معينة مثل هذه المجموعة من الأفكار الخاصة بها حيث تتغلغل في ثقافة ذلك العصر ككل. وتتغير مجموعات الأفكار العامة خلال مجرى التاريخ بتأثير ظهور تجارب جديدة وخبرات جديدة للجنس البشري" (وولتر ستيس، 1998: 23).

من خلال المعنى السابق لرؤى العالم تتضح أمامنا مجموعة من الحقائق، نوجزها في؛

- أنّ رؤى العالم ذات تقعيد أنطولوجي ما يجعلها أقرب إلى المعتقد الديني، حيث تشمل تصورا عن الإنسان والإله والطبيعة، وعلاقة هذه المكونات ببعضها، ذلك الذي يمنحها متانة الترابط وصلابة التنسيق الذاتي.

-أنّ رؤى العالم وبحكم جذرها الأنطولوجي تعد أمرا ميتافيزيقيا، بمعنى وراء عالم الأشياء والأفكار والقيم، وأنّها بذلك هي من يؤسس للنماذج التي بدورها تؤسس للمناهج وأدواتها.

-أنّ حضورها لا شعوري خاصة لدى العامة من النّاس، وكشفها لدى الخاصة منهم يكون بتفكيك مضامينها المبثوثة في نتاج ثقافة أمّة ومجتمع معين (فنونها وآدابها ولغاتها وعلومها ومناهجها).

- تجمع رؤى العالم بين الموضوعية والنسبية، فما يجعلها موضوعية هو حضورها كمسلمات وبديهيات في الثقافة الواحدة مع ثباتها وعدم تبدلها مع الزمن. أمّا لأنّها نسبية فبالنّظر إلى أنّ لكلّ ثقافة أو أمّة رؤيتها الخاصة للعالم.

غير أنّ هنالك مقاربة أخرى لماهيـة النمـوذج المعرفـي، وهـي مـا تعلـق بالإضافة النوعية التي وضعها الفيلسوف الفرنسي "إدغار موران" تبعد نسبيا عن المعنى الابستمولوجي عند تومـاس كـون، حيـث نكـاد نعـدم عنـده وجـود فارق بين رؤى العالم وفكـرة النمـاذج، كونـه أعطـى الخصـائص ذاتهـا التـي تحوزها الأولى للأخيرة، وذلـك تحـت مصـطلح واحـد "البـاراديغماطولوجيـا" للدلالة على "الخلفية الفكرية" واصفا لها بـ "السـيد الخفـي" (إدغـار مـوران، 2013: 442).

من مكاسب النماذج المعرفية ورؤى العالم أنّ "موران" أتـى علـى تعريـة النمـوذج الخفــي الــذي يحكـم الوحــدة وراء التعـدد، فمـثلا إن كــان النقـاش الابستمولوجي بـين العلـوم الطبيعيـة والعلـوم الإنسـانية يعكـس حقيقـة وجـود باراديغمان مهيمنان في علاقـة الإنسـان بالطبيعـة. الأوّل يـدمج الإنسـاني فـي الطبيعي -وعليه يمكن دراسة الإنسان كما تـدرس الطبيعـة-، أمّـا الثـاني فيقـر بالفصـل بـين الإنسـان والطبيعـة مؤكـدا علـى خصوصـية الظـاهرة الإنسـانية بإقصاء مقولات الطبيعة. إلاّ أنّ هذان البـاراديغمـان المتنافسـان يشـتركان فـي الاستجابة لباراديغم أكبر وأكثـر عمقـا هـو "بـاراديغم التبسـيط" (وفـق ثنائيـة منطقية الاختزال أو الفصل)، الـذي يـرفض فكـرة التعقيـد والتركيـب، وعليـه أمـام مشـكلة التعقيـد يعمـل بـاراديغم التبسيط علـى "اختـزال الإنسـاني فـي الطبيعي"، أو بــ "الفصل بـين الإنسـاني والطبيعـي" (مـوران: 444، 445).
هكـذا يبـدو جليـا أنّ التعـارض الحاصـل مـع أصـحاب وحـدة المـنهج الـذين يوحدون منهج العلـوم الطبيعيـة بـالعلوم الإنسـانية والاجتماعيـة، أو أصـحاب تعـدد المـنهج الـذين يقـرون بضـرورة الفصـل بـين كـلا المجـالين، ورغـم تعارضهما الشديد، يخضعان لنموذج ومنظومة معرفية واحدة هي " منظومـة التبسيط والاختزال".

وعن الخصائص الابستمولوجية والميتافيزيقية للنماذج المعرفية يحصـي لنا موران الخصائص الآتية؛

- أنّ الباراديغمـات "غيـر قابلـة للإبطـال"، كمـا أنّهـا بمنـأى عـن كـلّ تحقـق تجريبي.
- يحوز الباراديغم على السلطة الأكسيومية، مع عدم اختلاطه بالأولويات، إلاّ أنّه هو من يؤسسها.

عصـور - تصنيف ج- المجلد 23 / العدد01 - جوان 2024
EISSN 6278-2600 ISSN 1112- 4237
http://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/167

- كما يحوز البارادیغم على "مبدإ الإبعاد" أي أنّه يُبعد كلّ ما يتعارض من نظريات أو مقولات أو مناهج لا تتناسب معه (كالخلية لها نظام دفاع ذاتي). فمثلا لا يعترف نموذج التبسيط بوجود فكرة التكامل.
- كما لا يكتفي البارادیغم باستبعاد ما لا يتعارض معه، وإنّما يخفيه عن الواقع، مثلا في النموذج البنيوي لا يكون فيه للذات وجودا.
- أنّه غير مرئي، يقع في مستوى اللاّوعي ومستوى فوق الوعي. فهو المنظم غير المرئي للنواة المرئية النظرية.
- يخلق البارادیغم بداهته حينما يخفي ذاته، فطالما أنّه غير مرئي، يعتقد من يخضع له أنّه يستجيب للواقع والتجربة والمنطق، في حين أنّه يستجيب له أوّلا.
- يساهم البارادیغم في توليد الشعور بالواقع ويجعل من إطاره المفاهيمي والمنطقي واقعا مقبولا، فمثلا الذي ينتمي لبارادیغم النظام الملكي كما يرى "موران"، يعتقد أنّ كل الظواهر الحتمية وقائع حقيقية وأنّ الظواهر الاعتباطية مجرد مظاهر عرضية.
- الطبيعة الخفية للبارادیغم تجعله محصنا، لكن له نقاط ضعف، ذلك أنّ البراديغمات موجودة في كل مجتمع، داخل هذا المجتمع أو ذاك يوجد أناس جانحون وثوريون يحاولون تجاوز البارادیغم السائد عبر ثورات فكرية، أي ثورات باراديغمية.
- يوجد حالة من عدم الفهم والتضاد بين بارادیغم وآخر، ذلك لأنّ كل واحد له تصوره الخاص للأشياء ومنطقه الخاص في التعامل معها.
- يرتبط البارادیغم تراجعيا بالأنساق والخطابات التي يولّدها.
- يحدد البارادیغم الكبير، بواسطة النظريات والأيديولوجيات، العقلية، الإطار الفكري ورؤية العالم.
- بما أنّ الطابع الخفي للبراديغم يجعله أكثر تحصينا، فإنّ الثورة عليه تكون وفق عمل تصدعات وتفتتات وتآكولات في بنيان التصورات والنظريات التي يُضمر، ومع غياب المقدرة على الترميم وإعادة التهيئة حينها ستظهر أطروحات وفرضيات جديدة تؤسس لنموذج معرفي بديل (موران: 447- 451).

2-1- الأيديولوجيا ورهانات الموضوعية:

سمات البارادیغم تلك تعزز الاعتقاد من أنّ معنى النموذج قد تقترب دلالاته وحتى وظيفته قليلا أو كثيرا من دلالة ووظيفة الأيديولوجيا، لولا أنّ الأخيرة تعمل بشكل علني، فـ"بول ريكور" مثلا يبيّن وجوه دخول

الإيديولوجيا في العلوم الإنسانية من خلال الباب التالي: "تخليد مجموعة ما لأحداث تعتبرها مؤسسة لوجودها الخاص، فتعمل على؛ تشويه الوقائع. ثم يصير ذلك التشويه شبكة لقراءة سطحية وسلطوية. إلى أن تتحول إلى رؤية للعالم" (الخولي، 1996: 130).

أما "كارل مانهايم Karl Mannheim" فقد أكدّ بدوره على استحالة الوصول إلى الحقيقة بصورة مستقلة عن المعاني الاجتماعية والتاريخية، بسبب الدور الذي تلعبه الأيديولوجيا واليوتوبيا في العلوم الإنسانية، لكن من الناحية الإيجابية، أي التوظيف الابستمولوجي لمقولة الإيديولوجيا، وذلك في تفسير الظواهر النفسية والاجتماعية والتاريخية (الخولي: 131).

ثم يصور "مانهايم" أربعة مفاهيم أو أنماط من الأيديولوجيا؛ أولا، وجود نسق من المعتقدات يشكل هذا النسق مجموعة الأفكار التي تبرر الوضع الاجتماعي القائم. ثانيا، وجود عنصر تشويه الواقع بهدف تبرير الامتيازات الطبقية. ثالثا، عنصر اللاّشعور فاللذين يشوهون الواقع في حدِّ ذاتهم لا يشعرون أحيانا بهذا التشويه. رابعا، الحفاظ على الوضع القائم (نفسه: ص 131-133).

قبيل ذكر بعض النماذج التطبيقية توضيحا للتوظيف الأيديولوجي للنظريات النفسية والاجتماعية، حتى في أكثر الحالات التي توصف بها تلك النظريات بالعلمية، نستهل الأمر بما كتبه "غولدمان Lucien Goldmann": "ففي الحياة الثقافية لأوروبا الغربية وبالخصوص فرنسا، نجد أنّ العلوم الاجتماعية (السوسيولوجيات والأنتروبولوجيات) هي التي تسعى إلى شغل المكانة الأيديولوجية التي كانت تشغلها سابقا الفلسفة. فإذا تساءلنا عن المفكرين الذين يملؤون اليوم الحياة الثقافية الفرنسية الوظيفة التي كانت سابقا لبرغسون ومايرسون وبرانشفيغ وسارتر وجون وال أو ميرلوبونتي، فإنّ الجواب لن يثير شكا. إنّهم قبل كل ليفي ستروس، الانتروبولوجي، ورايمون أرون" (غولدمان، 1996: 37).

ففي نظر غولدمان أنّ الوظيفة التي شغلها علم الاجتماع هي وظيفة أيديولوجية أساسا خاصة بعدما فقدت الفلسفة تقريبا قوتها الأيديولوجية، وعليه فإنّ الأيديولوجيا في علاقتها بالعلوم الاجتماعية لا تقتصر على التركيبة البنيوية المضمرة حصرا، بل والوظيفية المعلنة أيضا.

كذلك عالم الاجتماع والإثنولوجيا الفرنسي "روجيه باستيد Roger Bastide" حينما كتب "إنّ الفلسفات لها أساسها الاقتصادي" (روجيه باستيد،

1988: 116) كاشفا عن الخلفيات البرجوازية للفرويدية. فالأخيرة في نظره لم تولد عبثا في ظل الملكية النّمساوية- الهنغارية القديمة عشية انهيارها في فينا التي كانت تمثل بوتقة غريبة جدا من كلّ النشاطات الاجتماعية، والألمانية، الهنجارية، السلافية، من كلّ الأنماط العائلية، الأبوية، الأموية، الرعوية، التي تتبادل التدمير بمجرد التماس. ففرويد بَنَى منهجه في سياق اهتمامه بمرض أفراد الطبقة البرجوازية والجماعات العائلية المفككة. وعليه ليس غريبا أن يجد فرويد الحياة الجنسية في كلّ مكان من تلك الأجواء، وأن يجد العُقد، والصراعات الداخلية، والاحساس بالخطأ. حتى الماركسية استغلت الفرويدية في تبريرها الايديولوجي حيث وجدت ظالتها في التأكيد على أنّ الفرويدية هي انعكاس للأخلاقية البرجوازية، والأزمة التي تتعرض لها في ذات الوقت (المرجع نفسه، صفحة نفسها).

أو حينما كشف "كارل ما نهايم" أنّ مدرسة "سيمل Simmel" الشكلية هي تتمة لليبرالية البرجوازية، فمساعي شكلانية "سيمل" للتنكر لذاتية الموضوع، والنظر للعلاقات الاجتماعية كعلاقات مجردة لا عينية، تنبع من صميم الرؤية البرجوازية للأفراد، فهي لا ترى فيهم أشخاص وعينات محسوسة، بل كيانات مجردة تربطها علاقات مجردة، كعلاقات البائع بالمشتري، والمستخدِم بالمستخدَم، إذ "تشكل مقولات الشكلية الألمانية أو الأمريكية الشمالية، نتاج فعل "الحيادية" التي تفصل مثلا علاقة السيطرة والخضوع عن الوضع المحسوس والمعاش عند الأشخاص الذين يسيطرون، أو الخضوع لمن هم أقوى منهم" (تيبس: 258).

ولعل السؤال الذي يطرح بناء على المعطيات تلك ما هي رهانات "الموضوعية" و"اليقين العلمي" في العلوم الإنسانية في ظل سلطان النماذج المعرفية ورؤى العالم وكذا التوظيف الأيديولوجي لتلك للعلوم؟

حقيقة، بالكاد نعلم عن الملابسات التي ارتبطت بموجبها فكرة "اليقين" بـ "الموضوعية"، ثم تقييد كل منهما (اليقين والموضوعية) بـــ "مبدأ التحقق" الذي يعود للفلسفة الوضعية. غير أنّ المؤكد أنّ "الموضوعية" ليست على دلالة واحدة ما يجعلها مطابقة لمبدأ التحقق. وعن تعدد مدلولات الموضوعية يمكن رصد الدلالات التالية؛

- تأخذ الموضوعية دلالة أنطولوجية بمعنى استقلال الوقائع الاجتماعية موضوع الدراسة عن الأجهزة المفاهيمية للباحث، وبالتالي الاعتقاد بوجود عالم موضوعي قائم بذاته أنطولوجيا. وأنّ هدف النظريات العلمية

عصـور - تصنيف ج- المجلد 23 / العدد01 - جوان 2024
EISSN 6278-2600 ISSN 1112- 4237
http://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/167

هو وصف البنيات الاجتماعية وآليات اشتغالها والكشف عن القوانين التي تفسّرها.

- الموضوعية بالمعنى الابستمولوجي، حيث يقوم هذا الموقف على الاعتقاد بإمكانية إقامة نظريات علمية تتعلق بمجموعة الوقائع الاجتماعية متى تم الاستناد على مبادئ وقواعد معقولة (المنهج وأدواته).
- الموضـوعية الأكسـيولوجية؛ والتـي تـرى أن تحقـق الموضـوعية يكـون بالتزام الحياد من الناحية القيمية والمصلحية.
- الدلالة الثقافية، وتتصل بما اتّفق وتواضع عليه المجتمع العلمي فـي حقبـة معينة من معايير وتدابير (قنصوة: 69).

من البيّن أنّ تلك الدلالات الموزعة خاصة على المستويات الأنطولوجيـة والأكسـيولوجية والثقافيـة لا يمكـن إلاّ أن تقابلهـا مواقـف مـن ذات جنسـها. فالاعتقاد بأنّ للموجودات كيانـا مسـتقلا تعد رؤيـة للعـالم ولا شـك أنّ لهـا مـا يربطها بالصـراع الفكري العتيق بين النزعتين الفلسفيتين الإسـمية والواقعيـة. أما الاعتقاد بإمكانية تحييد القيم الذاتيـة والروحيـة للباحـث أو المبحـوث -فـي المعنى الأكسيولوجي للموضـوعية- فهـو بـدوره يسـتجيب لـنمط قيمـي جديد ارتبط بالنزوع العلماني للعلم الحديث وبالتالي الانتصـار لـنمط القيم الماديـة. أمّا الموضوعية الثقافية فتبيِّن سطوة القناعات النفسية لمتحد علمي أو لمجتمـع ما عن حقائق سائدة في زمانه دون اشتراط الصّحة، وهكذا كان الاعتقاد مـثلا بمركزية الأرض أمرا موضوعيا -رغم بطلانه- ما دام أنّـه كـان مقبـولا عنـد مجتمع علمي في فترة زمنية ما. في حين أنّ الموضوعية الابستمولوجية التي تعتقد بإمكانية تفسير العالم انطلاقا من آليات عقلية كالمنهج وأدواته مثلا فهـي وإن بـدت أكثـر تماسـكا إلاّ أنّـه لا يمنعهـا مـن أن تكـون محـل اختـراق مـن وجهتـين؛ أنّ للمـنهج وأدواتـه -كمـا تقدم- فلسـفة (الميتودولوجيـا) فـلا يمكـن للمنهج أن يعمل متحررا عن مقولاته القبليـة التأسيسـية ذات الطـابع الفلسـفي. أما الوجه الثاني أنّ هذا المنهج وعلى فرض أنّه توصل لقـانون يفسّـر الوقـائع فإنّ هذا القانون في الحقيقة ليس مطابقا للواقع بل يختزله.

لكن هل يعني ذلك نفي الموضوعية عن العلوم الإنسانية بـإطلاق؟ أم أنّـه ينبغي البحث عن معنى آخر للموضوعية يتناسب وطبيعة الظـاهرة الإنسـانية والاجتماعيـة؟ إجابـة عـن هـذا السـؤال يمكـن الاسـتعانة بمواقـف الفيلسـوف الألماني "فيلهلم ديلتايWilhelm Dilthey " ورؤيته للمنهج والموضوعية، إذ أكّـد علـى أنّ فكـرة الموضـوعية لا تتجسـد علـى النحـو الـذي ارتضـاه العلـم

EISSN 6278-2600 ISSN 1112- 4237
http://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/167

التجريبي كشرط لليقين. وهكذا استهوته فكرة النظر في الفهم الداخلي للإنسان والـذي تتبنـاه العلـوم الإنسـانية، معتبـرا أن الموضـوعية فـي ميـدان العلـوم الإنسانية والاجتماعية تتحقق عن طريق "المعايشة الوجدانية" للظاهرة وفهم معانيها العميقة (مشير باسيل عون، 200: 91). ففي كتابه: "نقـد العقـل التـاريخي" فصل "ديلتاي" اهتمامات العلوم الطبيعية عن اهتمامات علوم الـروح (العلـوم الإنسـانية)، معتبـرا أن الاختبـار البـاطني أصـل العلـوم، وعليـه لـم تعـد الموضوعية رصدا للوقائع وإنما رصد للمعنى. فآثر "الفهـم" بـدل "الشـرح" (المرجع نفسه: 92- 95).

كما أخذ "ديلتاي" بتقسيم بديل عن الاتجاه الرومانتيكي والمثـالي للعلـوم، علـى أسـاس الموضـوع ولـيس المـنهج، علـى هـذا النحـو: أصـل العلـوم هـي "العلـوم التاريخيـة" ومـا تتضـمنه مـن سـير وتـأريخ، وتتفـرع عنهـا علومـا متخصصة يسميها "العلوم الإنسانية النسقية Systimatic" تضم: العلوم التقنية كالنحو والخطابة. العلوم المعيارية كـالأخلاق والسياسـة والنقـد الفنـي. العلـوم التعميمية أي تعميم القوانين كعلم النفس والاقتصـاد والعلـوم الاجتماعيـة. كـل هاته العلوم تشترك في "الاهتمام بالعقل الإنسـاني" (المرجع نفسـه: 97). وهكـذا تستحيل الموضوعية من منظور "دلتاي" تفهما للمعنى في التجربة المعاشة.

إلاّ أنّ مواطنـه "هـانس جيـورج غـادمير H.G.Gadamer" بـدى أكثـر جذرية منه حول فكرة "الموضوعية"، فجاء أطروحة بديلة تماما، أي دعـوى الانعتـاق مـن الموضـوعية تحقيقـا للفهـم المُغنـي خاصـة فـي كتابـه "الحقيقـة والمنهج" (1968). حيث رفض غادمير المسـعى الطبيعـي، وأيضـا المسـعى التاريخي لدلتاي في البحث عن معرفة موضوعية للعلوم الإنسانية، لقد رفض التقيّد بقواعد ثابتـة فـي اسـتنطاق معطيـات الحـس البـاطني، بـل لـيس هنالـك طريقة متميزة في العلـوم الإنسـانية. فهـو يـرى أن مقولـة الموضـوعية مهمـا حاولنا تكييفها في العلوم الإنسانية سنبقى محكومين بالنزعـة العلميـة السـاذجة للمنطق الطبيعاني (نفسه: 134).

- خاتمة:

في ختام هذا المقال الذي أردناه أن يكـون تحليلا نقديا لمفـاهيم وأدوات مركزية في ميدان العلوم الإنسانية والاجتماعية كالمنهج، والنماذج المعرفيـة، وقيمة الموضوعية فـي تلـك العلـوم، مقارنـة بـالمنزع الأيـديولوجي الـذي قـد يتلبس الباحث فيها ومناهج بحثه وتوظيفات نتائجها.

كان لنا بعد ذلك العرض أن فتحت لنا عديد النتائج نحاول إيجازها على هذا النحو؛

- إنّ للنمــاذج المعرفيــة فــي هــذا المقــال معنيــين اثنــين؛ أحــدهما منطقــي-ابستمولوجي تلمسنا حضوره عند الابستمولوجي توماس كون، الذي كان أوّل مـن أشـار لهـذا المصـطلح فـي كتابـه بنيـة الثـورات العلميـة. وآخـر نفسـي-أنطولوجي وقفنا على معناه وتوظيفاته عند إدغار مـوران الـذي لمـس معنـى البراديغم عنده معنى رؤى العالم.

- فالبراديغم بكـلا معنييـه يمـارس حضـوره علـى اختيـارات الباحـث وتأويلـه للظاهرة، وكذلك له سلطة على مناهج الدراسة وطرق الاشـتغال، ولـه سـلطة على البناء النظري والمفاهيمي للعقل في قراءته للعالم.

- إنّ الموضوعية في ميدان العلوم الإنسـانية لا تشـترط إقامتهـا علـى شـروط ومعايير موضوعية العلوم الطبيعية والتجريبية. حيث تأكد لنا أنّ للموضوعية معــان أربعــة علــى الأقــل تتــوزع بــين الدلالــة الأنطولوجيــة، والدلالــة الابستمولوجية، والدلالة الأكسيولوجية، انتهاء عند الدلالة الثقافيـة. وهـي وإن اشتركت في دلالاتها على نفي الذاتية والأيديولوجية عن العلوم، غير أنّه رأينا استحالة قطع "المعنى" واختزاله في الظاهرة الإنسانية، حيث يصـبح المعنـى مقدما عن البحث عـن اليقـين. لأجـل ذلـك رفـض غـادمير مسـار البحـث عـن اليقين في العلوم الإنسانية باعتباره بحثا عقيما، استلهمه أصحابه من النمـوذج الوضعي في المعرفة.

- إن إشــكالية الوحــدة والتعــدد المفترضــة فــي منــاهج العلــوم الإنســانية الاجتماعية، تنطلق من خلفية براديغم التبسيط والاختزال، فبين من يدعو إلـى تطبيقات المنهج العلمي واختزال الظاهرة الإنسانية في هذا الميدان وبين الذي يدعو إلى تخصيص مناهج نوعية للعلوم الإنسـانية والاجتماعيـة تغيـب فكـرة التكامل بين الميدانيين.

- البحث في مناهج الإنسانيات ذو قيمة وذو شجون في آن واحد. تتـأتى قيمتـه من الفتوحات التـي يورّثهـا لتلـك العلـوم فـي ظـل تزايـد المشـكلات الإنسـانية

والاجتماعية تعقيدا. غير أنّ مساعي وضعنة العلوم يزيد من قلق توظيفها. فالعلم اليوم كما هو ملاحظ يسير بوتيرة أسرع من وتيرة الثقافة والقيم والإنسانيات وأزمات العالم المعرفية تزداد مع زيادة تعقده. لذلك لا العلم الطبيعي ولا العلوم الإنسانية تبدو قادرة اليوم على افتراض الحلول لأزمة العالم المعاصر.

-يبقى من نافة القول، التأكيد على مضاعفة الاهتمام بميادين العلوم الإنسانية وتطوير الأبحاث المتعلقة بنظرياتها ومناهجها والإعداد المعرفي والعملي لمنتسبيها.

- قائمة المصادر والمراجع:

- أحمد بدر، (2001). مقدمة في الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، القاهرة: دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع.
- إدغار موران، (2013). المنهج: معرفة المعرفة، الأفكار، ج2 و3، تر: يوسف تيبس، الدار البيضاء: أفريقيا الشرق.
- ب. ه . ريكمان، (1979). منهج جديد للدراسات الإنسانية: محاولة فلسفية، ط1. بيروت.
- بول ريكور. (2005). صراع التأويلات: دراسات هيرمينوطيقية، تر: منذر عياش، ط1، بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة.
- بول فين، (1992). أزمة المعرفة التاريخية: فوكو وثورة في المنهج، تر: ابراهيم فتحي، ط1. القاهرة: دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع.
- توماس كوهن، (1986)، بنية الثورات العلمية، تر: علي نعمة، ط1. بيروت: دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع.
- روجيه باستيد، (1988)، السوسيولوجيا والتحليل النّفسي، تر: وجيه البعيني، ط1. بيروت: دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع.
- شافا فرانكفورت وآخرون، (2004)، طرائق البحث في العلوم الاجتماعية، تر: ليلى الطويل، ط1. دمشق: بترا للنشر والتوزيع.
- صلاح قنصوة، (2007)، الموضوعية في العلوم الإنسانية: عرض نقدي لمناهج البحث، بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع.
- لوسيان غولدمان، (1996)، العلوم الإنسانية والفلسفة، تر: يوسف الأنطكي، القاهرة: المركز القومي للترجمة.
- مادلين غراويتز، (1993). مناهج العلوم الاجتماعية: منطق البحث في العلوم الاجتماعية، تر: سام عمار، دمشق: المركز العربي للتعريب والتأليف والنشر.

- محمد ناصر عارف وآخرون، (1996). قضايا المنهجية في العلوم الإسلامية والاجتماعية، ط1. فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي.
- مشير باسيل عون، (2004)، الفسارة الفلسفية: بحث في تاريخ علم التفسير الغربي، ط1، بيروت: دار الشروق.
- نبيهة قارة، (1998). الفلسفة والتأويل، ط1. بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر.
- وولتر ستيس، (1998)، الدين والعقل الحديث، تر: إمام عبد الفتاح إمام، ط1. القاهرة: مكتبة مدبولي.
- يمنى طريف الخولي، (1996)، مشكلة العلوم الإنسانية: تقنينها وإمكانية حلها، ط2. القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع.
- يوسف تيبس، (2014)، التصورات العلمية للعالم: قضايا واتجاهات في فلسفة العلم المعاصرة، ط1، الجزائر: ابن النديم للنشر والتوزيع، بيروت: دار الروافد الثقافية- ناشرون.